

بول طبر

## الجاليات العربية في أستراليا

(بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠١٣). ٣٦٧ ص.

ساري حنفي(\*)

أستاذ علم الاجتماع في الجامعة الأميركية في بيروت،  
ورئيس تحرير المجلة العربية لعلم الاجتماع «إضافات».

يعيش في سيدني منذ عام ١٩٨٨، حول  
الحنين إلى الجذور عند هذا الشاعر. ولعل  
موضوع الحنين هو الموضوع الأقل أهمية في  
كتاب طبر والحمد لله! فالكتاب يشكل قطيعة  
مع كتابات نستالجية كثرت عن الشتات  
(Diaspora) العربي، والتي غالباً ما يسكنها  
هاجس توصيف البحث عن الهوية العربية  
لدى المجموعات المهاجرة، وبخاصة لدى  
الجيل الثاني. فلا يتعرض الكتاب للهاجس  
الثقافي باعتباره عاملاً واحداً من مجموعة  
عوامل اجتماعية واقتصادية وطبقية، إذ  
أبدع الكاتب بكشف الوقائع السوسيولوجية  
للمهاجرين العرب في أستراليا وما اعتراها  
من ديناميات تؤدي إلى حالات مركبة ومتنوعة  
من التعامل مع المجتمع المستقبل لهم.  
والأمر بالنسبة إليه ليس معادلة صفرية:  
لا يعني الانخراط الأكبر في الحياة السياسية

- ١ -

«يتركون عيوبهم ويمشون  
متكئين على نظراتٍ قديمة  
مُسجّى على أجسادهم صمت  
مُسجّة نسائم موتى  
أرواح أمكنة أبيدت  
وفي بالهم إذا مرّ غيمٌ  
ينزل المطر على حقولهم البعيدة»  
«يمشون»  
وحين يتعبون يفرشون نظرة  
وينامون» (ص ١٩٧)

ينقل بول طبر لنا مختارات رائعة من  
قصائد الشاعر اللبناني وديع سعادة، الذي

أو الاجتماعية في أستراليا اهتماماً أقل بمثل هذه الحياة في الوطن المولد.

شُغل الكتاب برقة وبجهد كبير من حيث البحث الإحصائي ودراسات الحالة المعتمدة على إثنوغرافية مديدة ومليئة بالمقابلات والملاحظة. ويجب أن لا ننسى الملاحظة بالمشاركة، إذ إن بول طبر قد أمضى صبي شبابه في أستراليا. واستجلب الباحث، في دراسة لحالات حزبية لبنانية، حالة منظمة العمل الشيوعي التي كان لها وجود مهم في أستراليا من عام ١٩٧٥ إلى نهاية الثمانينيات من القرن السابق، وأعطانا بعض التفاصيل «الداخلية» لنشوئها وتطورها وأفولها. ولعلّي أعيب على الكاتب أنه لم يقل لنا لماذا ميّز هذه التجربة أكثر من التجارب الحزبية التي تناولها باقتضاب (التيار الوطني الحر، تيار المردة، مجلس الجالية اللبنانية من ولاية نيو ساوث ويلز).

الكتاب هو حول كل الجاليات العربية (تشكل بحدود الثلاثة بالمئة من مجموع السكان)، ولكن كان التركيز على الجالية اللبنانية وهذا برأيي له مغزيان: الأول، يتعلق بالعدد فهذه الجالية هي الأكبر (٧٤٨٥٠) أستراليا لبناني المولد حسب إحصاء عام ٢٠٠٦ (ص ١٧)، بينما تحتل الجالية المصرية المرتبة الثانية مع فارق عددي شاسع (٣٣٤٩٠ شخصاً) وتليها الجالية العراقية (٣٢٥٢٠ شخصاً) ومن ثم الجالية السودانية (١٩٠٥٠ شخصاً). والمغرى الثاني أن الجالية اللبنانية هي الأقدم، حيث يعود تاريخ هجرتها إلى الربع الأخير من القرن التاسع عشر، ولم ينقطع قدومها إلى أستراليا حتى الآن. وقد سمعنا بفاجعة

السفينة التي غرقت على حدود الشواطئ الأسترالية (تشرين الأول/أكتوبر ٢٠١٣) والتي راح ضحيتها العشرات من أبناء منطقة عكار. فالفقر ما زال العامل الأساسي الذي يجعل اللبنانيين يتركون بلادهم.

تكمّن أهمية الكتاب في أنه لم يستثن الهوية الإثنية للمهاجر، فقد حاكتها وأثرت فيها الهوية الدينية والطائفية لتشكل هذه الأخيرة حيناً مصدراً للتماسك والتكامل والتضامن الإثني، وأحياناً مصدراً للنزاعات والتشرد.

## - ٢ -

وقد أظهر بول طبر أننا لا يمكن فهم التركيبة الإثنية وتفاعلاتها دون ربطها بتغير عزيز على الكاتب الألتوسيري وهو المواقع الطبقيّة. وهنا أظهر علاقات تواشج (Correlation) بين هذه المواقع وبين الحراك والوعي السياسي، وبخاصة لدى الطبقة الوسطى العربية. وقد وجدت هذه الطبقة الوسطى، ولا سيّما أبناء الجيلين الثاني والثالث في التعددية الثقافية الأسترالية ولو بشكلها الباهت، ملاذاً للتعبير عن طوقها للانخراط الثقافي - السياسي - الاجتماعي في الوطن الجديد، وفي الوقت نفسه ممارستها لطقوسها وثقافتها الإثنية، ليس فقط من طقوس غذائية كتناول التبولة والحمص والشاورما هناك (وهذه الصحون على أي حال أصبحت جزءاً من الثقافة الأسترالية!)، ولكن أيضاً بإيجاد كنة إنكليزية لدى الشباب اللبناني والعربي وبمفردات مخلوطة بالعربية.

آذار المتنازعين على السلطة، وهذا يوضح أهمية ما يسميه بول طبر «التحويلات السياسية» التي لا تقل أهمية من حيث الأثر عن «التحويلات الاقتصادية». وذلك لا يعني بالضرورة أن الفضاء الدياسبوري في بلد ديمقراطي (كأستراليا) قادر على «عقلنة» العلاقات السياسية في الوطن الأم، فقد يكون هذا الفضاء جزءاً في سياسة العلاقات الزبونية والعائلية التي اشتهر فيها الحقل السياسي اللبناني.

أخيراً؛ كنت أتمنى - كقارئ متخصص بالهجرة - لو طوّر الكاتب بعض نتائج بحثه وربطها بالنظريات الحديثة للهجرة، وأنا أعرف أن ذلك ممكن ولا سيما أن كتابه السابق<sup>(١)</sup> تميز بعمق نظري مشتق من كتابات بيار بورديو وغيره. وكل ما أخشاه أن تكون هناك عادة عند الكاتب العربي بالتخلي عن الربط بالنظرية عندما يكتب باللغة العربية. يتم ذلك في بعض الأحيان تحت ضغط دار النشر، فأنا أتذكر كيف أرجعت دار النشر إلي كتابي هنا وهناك: عن تحليل العلاقة بين الشتات والمركز؛ طالبة اختصاراً شديداً لأحد الفصول كي أشرح نظريات التحليل الشبكي الاجتماعي، وقد قاومت ذلك إلى حد كبير. وقد أخبرني أستاذ في جامعة بيرزيت كيف أن كتابي قد استخدم لتدريس هذا الموضوع لانعدام وجود مواد باللغة العربية عن التحليل الشبكي □

وهكذا يقدم لنا بول طبر تحليلاً بديعاً حول كيف يتم تحويل التركيبة الإثنية والطائفية والطبقية بشكل معقد من قبل مؤسسات لبنانية في أستراليا وأفراد أصبح لهم رأسمال اقتصادي مهم إلى رأسمال اجتماعي (بالمعنى الذي تكلم عنه بيار بورديو) من خلال التحاقهم بجمعية أو مؤسسة تمثل طائفة هذا الفرد لتؤدي دوراً قيادياً، وربما يتحول رأس المال هذا إلى رأس مال سياسي ليصبح زعيماً للجالية أو حتى ضمن الأحزاب الأسترالية.

كما يبين بول طبر بحق أن الانخراط في التعددية الثقافية لم يكن الخيار الأوحده لدى الجاليات العربية، فهناك انخراط انصهاري (Assimilation)، (ترجمه الكاتب خطأ بالاندماجي وهي ترجمة لـ (Integration))، حيث قام بعض أفراد الجالية العربية بالوصول إلى مناصب عالية في حزب العمال ولكن أيضاً بنسبة ضئيلة في حزب الأحرار والبرلمان ومجلس الشيوخ والوزارات، وأصبحوا بدلاً من محاربة القوانين العنصرية أدوات في سياسة أستراليا «البيضاء».

أما الفصل الأخير من الكتاب فهو دراسة مهمة ومفصلة حول الحراك الانتخابي للبنانيين خلال انتخابات ٢٠٠٩ ليظهر لنا أن ما يقارب ١٢,٠٠٠ مهاجر لبناني قد جاؤوا إلى لبنان قبيل موعد الانتخابات للإدلاء بأصواتهم لمصلحة مرشحي ٨ و ١٤